

روح الوفاق

تابعت الحلقة التلفزيونية الأخيرة "في الواجهة" و التي تناولت اتفاقية توصيل مياه نهر عطبرة الى شرق السودان وقد كان أحد المتحدثين ناظر "قبيلة الشكرية" الشيخ الجليل ابو سن .. وآخرين من ابناء المنطقة من النواب والمتقنين والسياسين.

وقد رجعت بي الذاكرة الى عام 1963م عندما سافرنا في الرحلة السنوية لكلية الطب جامعة الخرطوم الى مديرية النيل الأزرق .. وكانت أحد محطات الوقوف مدينه (القضارف) المشهود لها بنعمة المال وسعة الحال وقابلنا ناظر الشكرية الكبير أبو سن .. زعيم الأسرة الراعية ولا أتذكر تفاصيل شجرة العائلة الآن .. وكان معنا صديقي وزميلي الدكتور أحمد يوسف أبو سن، الإستشارى بمستشفى الوصل بدبي الآن ... قال لنا الناظر فيما قال آنذاك .. اننا نتحصل على العوائد ومستحقات الدولة من أبناء عشيرتنا بوسائلنا الخاصة ولكن المهم اننى اسافر للخرطوم لأسلم الحكومة بيدي ممستحقاتها سلفا في الموعد المحدد حتى قبل استردادها من القبيلة .. وان القضارف تتداول من العملة الصعبة الجارية في السوق ما يعادل أحد عشر الف جنية استرليني في العام .. ولكننا نعاني من أزمة الماء.

وعندما فكرت الحكومة مشكورة في توصيل المياه من نهر عطبرة وتخطت المنطقة الى مشروع حلفا الجديدة المهاجرة من الشمال لبناء السد العالى .. وترتب على ذلك أن تذهب جمالنا في مسيرتها للشراب .. عليها ان تقطع "الترعة الحكومية" لتذهب الى نهر عطبرة لتروى عطشها، واذا كنا نحن كبشر نفهم هموم الحكومة كسياسة فان جمالنا كحيوان لا يمكن ان يتخطى الماء امامه ليذهب أميالا أخرى الى نهر عطبرة .. ولحل المشكلة عينت الحكومة حرساً مسلحاً لحماية هذه القنوات .. وما كان من رعاة الإبل إلا ان تسلحوا ليقتتل الطرفان حول الماء ولسان حالهم يقول:

كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ والماء فوق ظهورها محمول

هذا ما قاله أبو سن الكبير قبل 42 عام، وترددت أصداؤه في حديث أبو سن الحفيد في الحلقة شاكرآ تنفيذ مشروع كانت فكرته أصلا موجودة .. وبدأت خطوة صحيحة في اتجاه خاطئ .. فلماذا تأخرت ومن المسئول في هذه الحقبة السياسية الطويلة .. حتى تصبح لأبناء الشرق قضية يذهبون بها الى المحافل الدولية ؟

وكتبت في هذه الصحيفة قبل محادثات نيفاشا الأولى قائلا: لقد قال لي صديقي وزميلي في كلية الطب الدكتور باسيفيكو لاقو من ابناء الجنوب وعندما كنا نعمل في مناطق الشدة في (جوبا) في عام 1968 وهي محاصرة حتى القصة الهوائية "اخى الزين .. اذا ما حليتو مشكلة الجنوب بطريقتمك الآن .. سوف نحلها بطريقتنا بعد خمسين سنة" وحتى بعد وصوله الحكم في منصب عضو مجلس السيادة في حكومة الانتفاضة بلغ ابني الدكتور نادر(الطالب في كلية الطب جامعة الخرطوم آنذاك) ليذكرنى، فالذكرى تنفع المؤمنين .فلماذا لم يستن ساسة الخرطوم النصح حتى ضحى الغد. .. فأصبح الصبح لنجد الدكتور باسيفيكو في صفوف الحركة الشعبية المسلحة يطوف المحافل الدولية ونحن في صفوف المعارضة الهامشية التي ما زالت تسدى النصح للأذان الصماء .. لماذا تأخر الحل؟ .. ومن المسئول طوال هذه الحقبة السياسية حتى أصبح لأبناء الجنوب قضية يذهبون بها للمحافل الدولية ؟

وأذكر للتاريخ فى حقبة السبعينات ونحن هنا فى أبوظبى كان يعيش بيننا الأخ السياسى المعروف ابراهيم دريج وزير الدفاع السابق فى حكومة الصادق المهدي .. وذهبت أزوره مع صديق الطرفين الأخ أحمد التجانى صالح الاقتصادى والسياسى الاسلامى البارز فى منزله فى حى "المناصير" بأبوظبى .. وفى الحديث قال لى مازحا: يالزين .. اذا طلع لنا بتروول فى غرب السودان .. سوف نعمل لكم فيزا !!". ولم يكن هازناً حين عاد الى الخرطوم حاكماً لاقليم دارفور ودخل فى مشادة صحفية مع الصحفى الراحل الأستاذ سيد أحمد نقد الله وقال قولته المشهورة: مرحبا بك فى دارفور .. كخبير أجنبى مثلخ .. لماذا تفجرت قضية دارفور الآن ومن المسئول فى تلك الحقبة السياسية الطويلة حتى يذهب أهل دارفور الى مجلس الأمن الآن فى سابقة لم يعرف مثلها التاريخ السياسى الدولى المعاصر فى أفريقيا.

ثم ماذا تبقى من خريطة السودان .. و ماذا تبقى فى الشمال المثخن بالجراح والذى يدور فى طاحونة الاحزاب السياسية والانقلابات العسكرية منذ فجر الاستقلال وما زال يعيش معظم الليل فى الظلام ويعانى أكثر النهار من العطش .. ويفتقر الى ابسط مقومات البنية التحتية التى تلمم أشلاء العاصمة السياسية فى الخرطوم أوالعاصمة الوطنية فى أم درمان .. أو العاصمة العمالية فى بحرى .. تلكم العاصمة المتجزئة المهترئة التى تفتقر الى الكبارى والجسور حتى كتابة هذه السطور .. وهى بوابة الديار .. وتتحدث عن حلم بناء المطار منذ أربعة عقود.

هذا الشمال .. والذى هو مزيج وخليط وأمشاج من كل أهل السودان .. تربة الأصل و حبل الوصل و قطعاً ليس إرث "الشايقية" الذين يوصفون بالسيطرة على الجيش والبوليس .. ولا "الذناقلة" الذين يتهمون بامتلاك التجارة ومفاتيح أسرار الاقتصاد .. ولا"الحفاويون" الذين يحسدون على امتلاك ناصية العلم واحتكار فن الدبلوماسية ولاقبائل أخرى لو أحصيت أهلها و تابعت نسلها .. ودرست أصلها وابعادها وأجدادها لوجدتها من رحم واحد من كل السودان .. أمة مهاجرة الى قلب العاصمة .. والعاصمة فى الأصل هى اللقاح الطبيعى لتلقى الأعراق ... فى الشريط الممتد على ضفاف النيل .. وبعضهم جذوره فى الشمال وفروعه فى غرب السودان .. والأخر بطونه فى الشمال وبطانته فى الشرق والأخر رأسماله فى الشمال وتجارته فى الجنوب .. هذا هو الشمال الواقف علي رجل واحدة.. ولماذا الآن؟ لاننا نزعنا جميعا الى الخلاف فى مرحلة الانعطاف فى تاريخنا السياسى المعاصر.

إن سيكلوجية الصحة النفسية فى السياسة الدولية تقول أن أهم عوامل نجاح الدبلوماسية تكمن فى "الوفاق لا الاتفاق" .. لأن الوفاق متأصل فى الروح والاتفاق مشروط بالطموح .. فالذى لا يتوافق مع نفسه يستحيل ان يتوافق مع الآخرين ويستحيل ان يتوافق مع العالم وعليه ان يخرج مع ابليس من الجنة .. جنة عالم اليوم.

ولاننا نفتقر الى روح الوفاق، فاننا نحاول ملء هذا الفراغ النفسى بالدخول فى مسلسل الاتفاقيات وأوكازيون المفاوضات الذى يسود الساحة السياسية .. ولانه فى الأصل مشروط بالطموح والطموح من متغيرات الزمن .. لا ثوابت الروح .. فأصبحت هنالك اتفاقية أولى وثانية وجولة مفاوضات أولى وأخيرة وهكذا ندور فى هذا الباب الدوار.

ان روح الوفاق تعنى فى بعض صورها ما قاله أبناء شرق السودان فى لقائهم الأخير .. وأسمعوا وأشهدوا لهذا اللقاء .. وقد كنت شاهد عصر عليه فقد طلبوا من الدولة بلسان أهل السودان (ان تطلق يدهم فى الاتصال باخوتهم المعارضين فى دول الجوار .. لكى يحققوا الوفاق الوطنى)، وأهل مكة أدرى بشعابها وقد راهنوا على

نجاح هذه التجربة .. فالشرق لا يحتل ويلات الحرب .. والسودان مئخن بجراحات الاحتراب. و القابض على الجمر ليس كالقابض على الماء.

ولم يعد وارداً حكم السودان بالاستيلاء على الأذاعة والتلفزيون والقصر الجمهورى فى العاصمه .. واذاعة بيان!! حتى لو كان بصوت رجل فى"قامة" عبد الناصر أو"كريزما" نيلسون مانديلا أو "كبرياء" مهاتير.

فقد ولى زمن الأنقلابات و أنطفأ بريق البيانات.. حتى لو من باب التمنيات و الله أعلم.

الدكتور الزين عباس عمارة - أبوظبى